

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

تعلمت منك أن الإنسان لا يبلغ الكمال ولكن حسبه المحاولة.

وأنه حتى ولو بدت نداءاتنا آذاناً في مالطافان البذور سوف
تثمر ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَفُتِحَتْ مَنَ نَشَأُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف]

هل حقاً وقفتُ على أهم محطات، ولخصتُ أهم دروس
مسيرة الأهوال لدرك الأحوال؟ المسيرة التي لم تأبه فيها
بالغيلان والفراعين، ركبت سرجك وسبلت نفسك في شأن
الدين، والوطن..

لربما كنت تلميذة متعثرة، فاقبل ما فهمته من الدرس يا
نعمتنا..

إليك وإلى ذلكم الدين الوضاء، والوطن الحبيب، أهدي
ليالي سهري، آلاء محبتي.

رباج

مدخل أول

(إن خطرنا كشعب وكأمة في سير تاريخ البشرية الآن خطر ضعيف للغاية، ولذا يستطيع المؤرخون أن يهملونا وأن يكتبوا عنا ما يشاؤون، وحركتنا الفكرية والثقافية ليست بالقدر الذي تتمكن بموجبه أن تصحح كل هذا، ولذا فنحن كما كنا مضطهدين سياسياً فإن حالتنا الاقتصادية فيها تخلف شنيع، كذلك نحن شعب وأمة مازلنا نعاني قلة الخطر وقلة الأهمية في تقييم وتقدير المسؤولية والدارسين والباحثين وهذا مالا يمكن تصحيحه إلا إذا أصبحنا أمة ذات خطر وذات وجود وذات وزن، وإن نحن لم نستطع الوصول إلى تلك المرتبة وذلك المستوى فستكون شؤوننا كلها كما هي الآن شؤون إهمال وإغفال واستخفاف).

السيد الصادق المهدي من محاضرة حول تاريخ المهدي

جامعة الخرطوم - أغسطس ١٩٦٦ م

(أولئك الذين استسلموا لأن كروت القضية في أيدي غيرهم عبروا ضمن ما عبروا عن الاستخفاف بالذات وكراهيتها واحتقارها، فلا أحد يمكن أن يعبأ بنا إذا لم ينبهه دورنا بما فيه من قدرات ذاتية. إن العالم سيهتم بقضايانا بقدر ما نهتم بها نحن فلن يتبته ويهتم ويلتفت إلا إذا كانت قدراتنا الذاتية في كل المجالات هي التي تدق على أبواب التاريخ، فإن لم تفعل ذلك فسوف نكون نسياً منسياً، وقديماً قيل واحداً كآلف وألف كآف، ونحن يهمنا بل يلزمنا أن ننقل أنفسنا من أف إلى موقف القدرة على التعبير عن تطلعاتنا ومثلنا ومصالحنا).

السيد الصادق المهدي

أمام مؤتمر اتحاد المهندسين الفلسطينيين ٢١ أكتوبر ١٩٨٦ م

مدخل ثاني

(نحن لم ندخل السياسة أبداً على سبيل البحث عن السلطة. دخلنا تلبية لنداء وطني. وإذا لم أجد وزملائي وسيلة لخدمة الوطن بثقة أهل الوطن فأماناتهم مروودة إليهم وحياتنا الخاصة مروودة لنا).

السيد الصادق المهدي

أمام احتفال العمال بعيدهم - ٨ مايو ١٩٨٦ م

مدخل ثالث

لو ينحني الصخر الأصم
لو عدى عكس الريح شرع
اتجرع الحنظل واقيف
وارتدّ وش الضي غرب

لا تنحني

يا قاهر العيشة الفقر
يا فاضلك إليه وبتملكه
غير نجمك العالي وأمين
غير منجلك وكدنكتك
يا أقوى من جور السنين
غير صوتك الدغري وسنين
يهدي الضهايا المتعبسين
وتقاوى للجذب اللعين

لا تنحني

لو يحرقك لفتح السموم لا تنحني
لو شالو من عينيك نوم لا تنحني
ليك السلام وعليك سلام
ما بتّ يوم والجار جعان
وقدلت يا فرس الرهان
يوم كبوتك إن شاء الله
الزغردن غنوك يا جبل الثبات
لو تسرى من أفقك نجوم لا تنحني
لو سهدك ليل الموموم لا تنحني
يا متمي لي فكرة ضد الانهزام
ما شفت قدامك مهان
ما فال البنات
وهتفنا من كل الشتات

لا تنحني

الشاعر مدني النخلي والفنان سيف الجامعة

مهدة للحبيب الإمام الصادق المهدي في عيده السبعيني ٢٠٠٥م

مقدمة صاحب السيرة والمسيرة

رحمة الله وسعت كل شيء، ومن نعمه على محبه الصادق أربعة خصال:
أولها: أنني مهما ظلمت لم أظلم أحداً، بل كل من تعاون معي منحتة ثقة بلا حدود.
ثقة أدهشتهم فمن تجاوب مع تلك الثقة أحبني حباً أدهشني، ومن أضاع تلك الثقة تمرد
تمرداً أدهشني ودمره.

وثانيها: أن حياتي حفلت برجال ونساء وأطفال بذلوا في خدمتي وخدمة أهداف عليا
باختيارهم جهداً من شدته وعمقه يكاد ألا يصدق، كأنما حلت فيهم أرواح أولاد حاج
شريف الأسطورية.

وثالثها: أنني مهما تراكمت علي الأرزاء لم تؤثر سلباً على معنوياتي بل اعتبرتها:
قَدْ يَنْعِمُ اللَّهُ بِالْبُلُوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ النَّاسِ بِالنَّعَمِ
بل أضع في صدر مجلسي عبارة «أشدكم بلاءاً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل
فالأمثل⁽¹⁾»:

عَلَى قَدْرِ فَضْلِ الْمَرْءِ تَأْتِي خُطُوبُهُ.

ورابعها: وهبت ذرية تفانوا باختيارهم ذكوراً وإناثاً في خدمة أهداف دينية، ووطنية،
 واجتماعية، عليا أجلها، تفانوا دون استثناء وعلى اختلاف مواقع الأداء.

الحبيبة رباح تجسيد حي للفتن الثانية والرابعة.

في مكتبي الخاص كتب جمعها على طول الحياة وأنا أصنف الكتاب خير جليس.
 وفيها الأوراق المتصلة بعملتي، حافظت عليها حرص جعد الكف بالدينار.

هذه الجواهر من كتب وأوراق أضر بحفظها التنقل لحمايتها من عبث الطغاة أثناء
اعتقالاتي المتعددة.

(1) رواه البخاري

ولكن بنتاي الحبيبتان أم سلمة، ورياح، فقد عملتا على تنظيمها وتبويبها.

أما الحبيبة رياح كمسؤولة في مكتبي الخاص فقد أمت بأوراق حياتي كلها، كما راجعت كل كتاباتي وشاركت مع أبنائي الأحباب عبد الرحمن فرح، وسامية يعقوب، وإنعام الجمري وغيرهم ممن تعاون معهم في الطباعة والأرشفة الإلكترونية، ذلك أنهم في مكتبي الخاص قرروا منذ العام ٢٠٠٠م أن يطبعوا أعمالي كلها في مجلدات أتمنى لهم التوفيق.

الحبيبة رياح رأت أن توثق لسيرة حياتي استناداً لما سمعته مني في مناسبات كثيرة وللأوراق المرتبة في المكتبة.

هذا السفر هو الجزء الأول من هذه السيرة وهو يصلح مرجعاً تاريخياً وأديباً مثلما هو سيرة حياة.

إن دراسة رياح الهندسية، وموهبتها كشاعرة وفنانة تشكيلية، جعلت عملها يكتسب منهجية العلم الطبيعي وانعناق الفن، والعمق الروحي، والإنقان. كأنها تتعبد ربها بالإنقان. «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُجِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَمَّهُ»^(١).

إن في هذا الكتاب لوحة جامعة لهذه المعاني، وأقل ما فيها بر بنت بوالدها، وخير ما فيها ديوان أحداث وأفكار تهم جيلنا والأجيال بعدنا، فالماضي جذر الحاضر والمستقبل. ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَئِكَ نَصْذِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي

القاهرة نوفمبر ٢٠١٥م

مقدمة الأجزاء الثلاثة الأولى

بسم الله والحمد لله القائل ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ، والصلاة على حبيبتنا المصطفى الذي أثبت للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجر إذا أخطأ، وبعد -
الإمام الصادق المهدي شخصية لها أثر يمتد من نطاقه الوطني السوداني إلى إقليميه العربي والأفريقي والإسلامي والعالم.

ففي وطنه انتخب رئيساً للوزراء مرتين في عهد ديمقراطية (يوليو ١٩٦٦ - مايو ١٩٦٥ م) و(مايو ١٩٨٦ - يونيو ١٩٨٩ م)، وانتخب رئيساً لحزب الأمة وإماماً للأَنْصار الكيان الديني الأكبر بالسودان. وإقليمياً اختير رئيساً للمنتدى العالمي للوسطية، وصنفه معهد الدراسات الموضوعية بنودلهي، الهند، ضمن أعظم مائة شخصية مسلمة في القرن العشرين، وعالمياً حاز على جائزة قوسي للسلام للعام ٢٠١٣ م، بالفلبين. ويعد من أبرز الناشطين بنادي مدريد وهو نادي لرؤساء حكومات ودول سابقين يعمل على تمكين وتطوير الديمقراطية في العالم. وهو نشط فكرياً بالتأليف والخطب المنبرية واللقاءات الإعلامية، وسياسياً عبر حزب الأمة، ودينياً عبر هيئة شؤون الأنصار، فهو ذو اهتمامات عديدة تمد صلتها لفكرة التحديث المؤصل.

وبالرغم من أنه وجدت كتب وأدبيات عديدة تعرضت إيجاباً أو سلباً لجانب من أدائه سواء السياسي أو الفكري إلا أنه لم يوجد كتاب لسيرته، على أهمية مثل هذا الكتاب في التعريف بشخصيته منذ نشأتها، وتطور فكره، وملاح عطاءه السياسي بتتبع لصيق.

وقد حاولت كثيراً حضه على تدوين سيرته، وبصفتي مسؤولة الدراسات والنشر في مكتبته تبنيت مخططاً لكتابة تلك السيرة لتنتشر بالتزامن مع احتفالتنا بعيد السبعيني في ديسمبر ٢٠٠٥ م، ولكن حال دون ذلك أنه لم يتحس كثيراً للفكرة في البداية باعتبار أنه يدوّن كل الأشياء والفترات الهامة التي مرت به وشارك في أحداثها فلم يتبق من السيرة سوى الرواية عن الذات ولم يكن متحمساً لها.

ولهذا بدأت في هذا الجهد قبل نحو أربع سنوات، ولكن ببطء فرضته ظروف الإقامة

في السودان والمشاعل الملتفة، ويرغم ذلك واصلت، ولم يثنني أنه استجاب للدعوات المتكررة بتسجيل ذكرياته أخيراً وبدأ في ذلك فعلاً إبان إقامته الحالية بمصر منذ ديسمبر ٢٠١٤م، كما سجّل ستة عشر حلقة من برنامج (شاهد على العصر) الذي يقدمه الإعلامي المجتهد أحمد منصور بقناة الجزيرة والتي تبث هذه الأيام وفيها من معلومات السيرة الكثير.

واصلت في إكمال الكتاب والسعي لنشره لأن إخراجي للأوراق كان بصورة مختلفة عن تلك التي خرجت بها حلقات السيرة أو الشهادة على العصر، وإن كانت أكملت بعض النقص في كتابي. فالقيمة الأساسية لهذا الكتاب أنه يجمع أهم الشهادات التي كتبها الإمام الصادق المهدي حول الأحداث المختلفة، وبعضها مأخوذ من وثائق مغمورة لا أظن اطلع عليها أحد.

فحديث الحبيب الإمام الصادق المهدي حول تدوينه للأحداث المهمة في حياته صحيح من ناحية وجود عدد من الأدبيات التي تغطي الفترات والأعمال المهمة التي قام بها أو شارك فيها. كما أنه يحرص دائماً على اصطحاب أجندة يودعها اللقاءات والأفكار والأحداث بل حتى الرؤى المهمة، ويثبثها هم أحياناً، وأبيات الشعر التي تسليه، ومن أسف أن أجندة كثير من الأعمام ضائعة مع الجزء المفقود من مكتبته أو بسبب التنقل المستمر.

وبرغم هذا التدوين المذكور، فلا شيء يعدل روايته المباشرة للأحداث وانطباعاته حول الموضوعات التي تثيرها. ولو كان الحبيب الإمام الصادق هو كاتب السيرة لكاننا قرأنا عجباً.

المصادر الأساسية

وما صنعتها هنا هو أنني قلبت بين أوراقه، ما استطعت فهي كثيرة عصية على الحصر وفوق طاقتي الحالية وإن كنت أظنني بلا ادعاء أكثر شخص على ظهر البسيطة مطلع على كتاباته حتى الآن. انتخبْتُ من تلك الأوراق رواياته للأحداث ونقاشاته للقضايا التي كانت تشغل باله في مراحل حياته المختلفة، وأحياناً جلبتُ أكثر من رواية له لنفس الحدث مع ما في ذلك من تكرار تغاضيتُ عنه لاختلاف في تناول أو نظرات أو معلومات جديدة، كما أشرتُ لأعمال أو كتابات مهمة في سياق مشروعه الفكري

ووضعها ضمن السيرة.

ومن الأوراق التي دون فيها تجاربه ورقة (ثلاث سنوات في خمسينيات القرن) التي دونها في ١٨ مارس ١٩٨٣م وروى فيها مذكراته في كلية فيكتوريا، ثم كلية الخرطوم الجامعية، ثم دراسته في جامعة أوكسفورد بكلية القديس يوحنا، وهي موجودة بأكملها في الفصل الأول المعني بالمولد والنشأة (مجاهد جاي من كباكيبية) في الجزء الأول للكتاب بعنوان (بينج ماريال)^(١)، يضاف إليها مذكرات (تضاريس الذاكرة) التي أصدرها البيت العربي في مدريد عام ٢٠١٠م كثالث إصدار في سلسلة تضاريس الذاكرة مع قادة وزعماء ومفكرين عرب.

أما كتاب (جهاد في سبيل الديمقراطية) الذي يرصد دور الإمام الصديق في مناهضة حكم عبود، فقد كان مرجعاً رئيسياً في الفصل الثاني للجزء الأول (رياح لم تشتتها السفن).

وكتاب (الانشقاق في حزب الأمة بالوثائق) يروي الأحداث التي أدت للخلاف داخل الحزب في الأعوام ١٩٦٢ وحتى ١٩٦٨م، وكان مرجعاً أساسياً في الفصل الرابع من الجزء الأول (بينج ماريال) الذي أضيفت إلى مقتطفاته عدد من الأوراق بعضها ناقص وبعضها جزء من كتب ضائعة، إضافة لمذكرات السيد الصادق في سجن جببت في الفترة (يونيو- يوليو ١٩٦٩م) وهي مدونات لم تنشر على قدر كبير من الأهمية وقد اقتبست منها بتصرف نظراً للصراحة البالغة التي كان يكتب بها كأنها شهادة للتاريخ من النوع الذي يودع في دار الوثائق مختم بالشمع الأحمر! وكتاب (خطب السيد رئيس مجلس الوزراء لسنة ١٩٦٦م)، ومحضر لقاء دونه السيد الصادق بسجن شندي، بالإضافة إلى أجندة العام ١٩٦٢م.

كتاب المصالحة الوطنية الصادر عام ١٩٧٨م يروي الأحداث منذ قيام انقلاب ٢٥ مايو وحتى تاريخ كتابته، وأنت تجد/ين أن معظم فقرات هذا الكتاب إما موجود بكاملها أو ملخصة في الجزء الثاني من الكتاب (ظلام أب عاج)، مع الاستعانة في أوله بمذكرات سجون جببت وبورتسودان وشندي، ويسلسلة (مذكرات الإمام الصادق

(١) يرد في الفصل الرابع من الجزء الأول شرح للتسمية (بينج ماريال) والتي أطلقها عليه الدينكا لدى زيارته للجنوب في ١٩٦٦م وفي أحد تفسيراتها تشير للجمع بين الشباب والزعامة.

المهدي في السجون) التي نشرتها صحيفة الأخبار في أغسطس ٢٠١٠م، وفي آخره تمت الاستعانة بكتاب «ميزان المصير الوطني في السودان» الصادر عشية انفصال الجنوب المرير عام ٢٠١٠م.

الجزء الثالث من الكتاب والذي يروي قصة الديمقراطية الثالثة جزء منه مأخوذ من كتابه (الديمقراطية في السودان عائدة وراجعة). ومجلدات خطب السيد رئيس مجلس الوزراء الثلاثة التي تغطي الفترة من ٦ مايو ١٩٨٦ وحتى ٣١ ديسمبر ١٩٨٨م (أما الجزء الرابع الذي يغطي الفترة المتبقية حتى ٣٠ يونيو ١٩٨٩م فلم أفلح في الحصول عليه)، بالإضافة لكتاب (ميزان المصير الوطني)، وهكذا..

الكثير من هذه الأوراق نفسها لم نجد لها بهذه السهولة التي نسرد لها بها، فمكتبة الحبيب الإمام الصادق المهدي ووثائقه عانوا مثله إبان الشموليات التي احتلت أكثر من ثلاثة أرباع عمر السودان المستقل. وقد عشت حياة هذه الوثائق القلقة منذ بل حتى قبل تخرجي من دراسة الهندسة بجامعة الخرطوم عام ١٩٩١م. فانكببت على وثائقه وكتبه أبحث عنها وأجمعها وكانت موزعة في المخازن في حالة رديئة وبعضها مجموع في جوانات وأخرى «مبهولة» وبعضها في شنت، ومنها ما تسربت إليه مياه الأمطار وما أكلت منه دابة الأرض «الأرضة» وذلك أنه كلما كانت هناك غارة أمنية على بيتنا (وكانت تلك الغارات طيلة عهد مايو و«الإنقاذ» حالة متكررة) كان هناك قسم كبير من الأوراق يُخفى بسرعة داخل المخازن حتى لا تلحقه الأيدي الآثمة.

ولم يفت زمان طويل منذ جمعتهما في ١٩٩١م وبدأت في تصنيفها وترتيبها حتى جاء الإنذار بأن البيت معرض للمصادرة إثر اقتلاع منزل المرحوم الدكتور عمر نور الدائم في ١٩٩٧م، كان السيد الصادق حينها قد هاجر في «تهتدون» فلم يهتم إلا بمصير المكتبة ونظر للبيت كطين زائل، وطالب بأن توزع المكتبة بين الأحباب المضمونين لثلاث تطلاتها اليد الباغية ويكون مصيرها كمكتبة الدار الثرية التي نهبها عشية انقلابهم فلم يُعرف مصيرها حتى الآن.

تولت الوالدة المرحومة الحبيبة سارا يساندها شقيقي الصديق توزيع المكتبة على عدد من الأحباب، ولم يسجلوا الأسماء بالطبع خشية الملاحقة الأمنية وأن تكتشف القائمة فتركوا المسألة محفوظة في الصدور، والصدور بئس المستودع! أما في بيتنا

فحفظها كما يحفظ البحر النقوش! ولذا حض ربنا على الاستكتاب حتى لا نرتاب ولا ننسى. المهم في نهاية الأمر، بعد أن عاد السيد الصادق في «تفلهون» عام ٢٠٠٠م هب بعض الأحياب وأعادوا ما عندهم من كتب وأوراق مشكورين، وآخرون الله يعلمهم احتفظوا بها ظناً منهم أن وقت إعادتها لم يحن بعد خاصة وليل «الإنقاذ» الطويل لا زال يجثم على صدرنا. فقمنا بالإعلان في الصحف، وفي منبر صلاة الجمعة، ولم يأتنا مردود تلك النداءات، فلا زالت الأوراق والكتب ناقصة بشكل مؤلم.. وبرغم ذلك فإن حصيلتنا من الأوراق هائلة.

ومن أهم الأدبيات الموجودة في هذا الصدد هي خطب السيد الصادق في حكومته الأولى بستينات القرن العشرين والتي غطت مواقفه وآراءه في حكومته الأولى بالستينات وقد وجدناها بحوزة الدكتور عبد الرحمن الغالي، ومجلدات خطبه كرئيس للوزراء في الثمانينات وهي أربعة وجدنا ثلاثة منها بحوزة الحبيب مولانا آدم أحمد يوسف، أما الرابع الذي يحوي خطب العام ١٩٨٩م فلم نحصل عليه كما ذكرت آنفاً!

ومثلما استفدتُ من بعض الروايات وأهمها روايته هو نفسه لقصة حياته ويرد في الكتاب كيف نظم لنا درساً لسيرته الذاتية في مطلع تعرفنا عليه، فقد استفدتُ للتاريخ في مرحلة الطفولة والصبا من عدد من الخطابات خاصة خطاباته وأخيه عصام وخطابات الإمام عبد الرحمن المهدي لوالدته السيدة رحمة.

كتاب السيرة والمسيرة

المرّة الأولى التي حاولت فيها تدوين جانب من عطاء الحبيب الإمام الصادق المهدي ومواقفه كانت حينما اتصل بنا في عام ٢٠٠٧م بعض الأحياب الذين أرادوا التقديم له لنيل تكريم يستحقه فطالبوا أن نرصد لهم أهم جوانب عطائه، فقممت يومها بكتابة «مفردات التفرد في تجربة الإمام الصادق المهدي»، مفردات التميز في تجربته كحاكم، وكمعارض، وكزعيم حزبي، وكقائد ديني، وكمفكر، ثم تطرقت للتفرد في مسألة الكسب المعيشي، وختمتها بذكر أهم مفردات الاعتراف بتفرد الإمام وطنياً وإقليمياً ودولياً.

والآن تصديت لكتابة موسعة ترصد سيرته عبر أوراقه وما كتب عنه في إطار بحثي، وهو هدف طموح جداً كلما أوغلت في تنفيذه وجددتني في محيط أعمق. ورأيت أن

يخرج الكتاب في خمسة أجزاء مركزاً على سيرة للحبيب الإمام الصادق المهدي، وأهم ملامح فكره، وعطائه السياسي، وبعض مميزاته الشخصية. وذلك على النحو التالي:

الجزء الأول: يغطي الفترة حتى حلول الظلام المايوي، بعنوان (بينج ماريال). وهو لقب أطلقه الدينكا على السيد الصادق لدى زيارته للجنوب في ١٩٦٦م، ويعني الزعيم ماريال، وقد اختلفت تفسيرات أساتذة لغة الدينكا الذين قابلتهم للتسمية، وكان أحد التفسيرات أنه تشبيه له بطائر الغرنوق الذي يجمع بين جمال المنظر والنبيل، فهو حينها كان يجمع بين الشباب والزعامة فكانما هو تناقض شبيه.

الجزء الثاني: يغطي فترة الانقلاب المايوي، بعنوان (ظلام أب عاج)، ولقب (أب عاج) كان يطلقه نصراء نظام مايو على رئيسه الذي كان يحمل عصا من العاج دارت حولها الأساطير.

الجزء الثالث: يغطي فترة الديمقراطية الثالثة، بعنوان (الصادق أمل الأمة..ولكن!)

الجزء الرابع: يغطي فترة ليل (الإنقاذ) الطويل.

الجزء الخامس: يهتم بتحليل فكر الإمام والتطور فيه، وبعض مميزات الحبيب الإمام الصادق المهدي الشخصية، وباب حول الأشعار التي قيلت حوله، وأهم الأقوال والتحليلات لدوره من قبل آخرين.

وتخرج الأجزاء الثلاثة الآن متزامنة مع ثمانينية الحبيب الإمام الصادق المهدي، وذلك بأمل إلحاق الجزئين الرابع والخامس حالما يتم إعدادهما بعون الله وتوفيقه.

جزء كبير من مادة الأجزاء الثلاثة هذه كما أشرت هي عبارة عن كتابات سابقة للسيد الصادق المهدي، أو ملخصات عنها، إذ قمت بجمع المادة وتحريرها وترتيبها بتسلسل تاريخي، مع ربطها برواية متسقة للأحداث مستعينة بروايات سمعتها أو يبحث محدود في بعض الأدبيات التي تغطي الأحداث التي أروىها. ولهذا لا يمكن القول إن الكتاب من تألفي بينما ثلاثة أرباعه تقريباً عبارة عن كتابات قمت فقط بتحريرها وجمعها في سياق رواية متصلة.

وقد اخترت أن أروي عنه وبالطبع واجهتني مشكلة اللقب فهو والدي وإمامي و«الحبيب»: الكلمة التي صارت تعنيه في مخاطباتنا، ولكنني تركت قلمي يسير مع عمره

فهو الصادق أو السيد الصادق وهو صغير إلا إذا رويت عنه رواية حديثة حيث يتحول «للإمام الحبيب»، وأرجو ألا تضير هذه اللغة القارئ، ولا ينظرن للألقاب، فالحبيب الإمام الصادق المهدي ليس ممن يضيف إليهم اللقب أو يحذف عنهم، وكنت عودت نفسي أن أكتب عنه كما يحب من الشعب السوداني أن يناديه (الصادق) لأنه برأيه يحول الاسم إلى صفة محببة. ولكنني تركت لمحبي اللقب أوقاتاً كثيرة فيها ينعمون! وأنا أعلم مدى أهميته لدى كثيرين، وقد رُوي أن صحافياً أنصارياً مخضرمًا في صحيفة مستقلة، حينما عرض عليه مقال لكاتب كان يشير للحبيب الإمام الصادق بـ«الأستاذ»، وذلك في عرفه قلة أدب ما قبلها ولا بعدها ولكنها مغلفة، قال للمحرر احذف هذا اللقب واتركه الصادق قراحاً ليعلم الجميع أنه قليل الأدب!

ولكننا لنا رأي مغاير عن تلك الفكرة، ولا يضيرنا أن نتحدث عنه باسم الصادق، بينما نحبه ونجله ونعترف بفضله أيما اعتراف! وأنت تجد/ين في آثار الإمام المهدي عليه السلام انتقاداً لاستخدام الألقاب باعتبارها باباً للتكبر المذموم، كذلك تجد/ين لدى بعض حاملي الألقاب في بلادنا خواء يدعو للرتاء ولدى بعض المتجردين منه امتلاء ورواء يدعو للاحتفاء، وكما قال شاعرنا الفيتوري رحمه الله فالغافل من ظن الأشياء هي الأشياء! ومجمل القول إنني لا حاجة لي بالتمسك بالألقاب: مطية الخاوين وزينة الذين هم عن الفضل عارين!

وفي هذا الكتاب حرصتُ إذا كان الكلام نقلاً عن روايته على ترك ما رواه بنفسه بنفس اللغة (ضمير المتكلم)، وحرصت على التفرقة بين ما سقته من روايات الآخرين أو مشاهداتي أو من البحث، وبين ما جاء بلسانه بتغيير شكل الخط. ولكن هذا التغيير أحياناً خادع، فكثير مما هو وارد كأنه روايتي في الحقيقة تلخيص أو تحرير لمادة كتبها خاصة كتاب المصالحة الوطنية.

مشروع الكتابة عن الإمام الصادق المهدي مشروع طموح جداً فجوانبه عديدة وعطاؤه ثر، وحتى السرديات المتعلقة بسيرته كثيرة من لقاءات صحفية وتلفزيونية وأجندة وأوراق وكتب ومدونات. لذلك فإن المغامرة بإخراج كتاب يدعي تغطية الفترة التي يرصدها الكتاب ظلم وجهل كما هو حال الإنسان الذي وصفه ربه في تقلد حمل الأمانة التي أبتها السموات والأرض والجبال.

ولكن شجعني في المقابل معطيات محفزة، فالمادة حول كثير من حقب حياته شبه جاهزة. وعلاوة على كوني ابنته وذلك باب لمعرفة لصيقة، فقد كنت فرداً غير رسمي في مكتبته منذ فترة الديمقراطية حيث كنت أقضي ساعات طويلة في المكتبة، وكنت ألامه في بعض الأسفار الخارجية حينما تسمح ظروف دراستي، بعد ذلك لزامته كمساعدة بحثية ومسئولة من أوراقه ومكتبته بشكل رسمي منذ ١٩٩١م أي ربع قرن حتى الآن ولفترة أكثر من نصف عمري، ذهبت على إثره للقاهرة ثم عدت معه في «تفاحون»، ومنذ تكوين مكتبته الخاص بشكل مؤسسي سنة ٢٠٠٠ تقلدت منصب سكرتيرة المعلومات والدراسات والمكتبة والنشر، وعبره توثقت معرفتي بالآلية التي يتابع بها الأحداث ويتفاعل بها معها.

هذه الفترة الطويلة جعلتني قريبة منه فيزيائياً بما يسهل علي رصد تحركاته وأعماله، ولكن الأكثر من ذلك هو القرب الفكري حتى أنه صار أحياناً يعود لي يسألني عن بعض آرائه والمقولات التي يستشهد بها إذا نددت عليه ويقول إن «رباح هي ذاكرتي».. وأخيراً وهو يستعد لحلقات (شاهد على العصر) ساعدته ببعض بحوثي حوله فقال لي: لقد صرت تعرفيني أكثر مني! وهذه قلادات أعتز بها، وأدعو الله أن أكون قدرها.

ولعلك تقول/ ين كما قال كثيرون إن هذا الكتاب هو مصداقاً للكلمة القديمة: كل فتاة بأبيها معجبة! ولعلك تتعجب لو قلت لك إن باب الأبوة لم يكن باباً للإعجاب بحد ذاته، فحينما بدأت تجربتي مع الإمام كابنة كنت ملأى بالحنق على هجرنا طيلة سنوات طفولتنا الأولى، فكم كان يؤلمني مثلاً ونحن صغار سؤال بعض أندادنا في الأسرة هل لكم أب أو أين أبوكم؟ وكان هذا السؤال من إحدى بنات الأهل حجاباً عنها امتد لسنوات، كنت أحسها كمن صفعتني في خد مجروح! ولذلك كنت غير مستعدة للتعامل بأريحية مع ذلكم القادم الجديد حينما بدأ يطل في حياتنا، والذي يبدو أن لديه رؤى كثيرة لست مستعدة لاتباعها بحال، وقد واجه الإمام شيئاً من هذا الرفض الظاهر أو المستتر منا جميعاً بدرجات متفاوتة ربما باستثناء قليلين. ولكن منهجه في التعامل معنا كان قاصماً لظهور هذه الشنشة التي أبدلها أصحابها وصاحباتها طوعاً بعرفان لقيمة هذا الرجل والقيمة التي يتربعها على مرتفعات المكارم.

فهو برغم رؤاه الواضحة وقيمه الأخلاقية والدينية العالية، لم يمه ولم يأمر ولم يعاقب أو يزر، وقربنا إليه حينما أتاحت له ظروف، في جو من المحبة والاحترام لذات كل

شخص منا، وفضل التوجيه لا باللسان ولكن بإعطاء القدوة. إنه رجل مهيب عظيم ونحن كنا نشهدكم من الناس كان يجله، ولكنه كان يجلس بيننا ونحن أبناءه الصغار الذين شهدنا كيف تعني الأبوة في العرف السوداني شيئاً أقرب للسخرية، أو بين محبيه الذين يعلمكم تسعدهم خدمته، ولكنه يخدم نفسه بنفسه، ويستكثر حتى أن يطلب أحداً منا ولته كوب ماء!

وإني لن أغالطك قارئ في أن الكتاب يأتي كإعجاب فتاة بأبيها، ولكنني ألتبس أن تنظر فيما أقول بعين النقد لا عين الانطباع، والنقد يستكنه الأشياء ولا يكتفي بالأحكام والانطباعات السابقة أو السريعة، فإن كان ما أتيت به هو من باب ما يمكن أن تقوله أية فتاة معجبة بأبيها فلك أن تحكم علي بأنني مقادة بعاطفة البنوة وأن الكتاب نتاج عاطفة وتزيين، وإن رأيت أن ما ذكرته فيه رصد وبحث وخبرة ولا ينفي العقل وإن لف بالمحبة، فاحكم لكتابي هذا بأنه صفحات من حياة رجل أثر ويؤثر على حياة السودانيين وأفكارهم بل حياة كثيرين خارج السودان، ويحق لهؤلاء جميعاً الاطلاع عليها، وأنه يستحق أن ننظر إليه بتعاطف، هو الذي قدم وما استبقى شيئاً!

وإني لا أنسى في النهاية أن أؤكد أن ما جاء في الكتاب وإن كان في قسم كبير منه من كتابات الإمام الصادق المهدي إلا أنه غير مسئول مما فيه من قريب أو بعيد بل رفض مراجعته وتصويبي لو اشتطت أو مساعدتي فيما غاب عني من أحداث، وإن كان رضي أن يكتب مقدمة له بدون أن يصحح أو يقوم، مطالباً إياي بتقلد مسئوليتي في الرصد بعيداً عن حكمه وليس مطلوباً مني في النهاية (لوحاً محفوظاً)، أو كما قال.

وهذه النقطة مهمة للغاية لأنني اتضح لي أثناء مشاهدة حلقات (شاهد على العصر) التي بثت في النصف الثاني من هذا العام (٢٠١٥م) أنني أوردت معلومات غير دقيقة أحياناً، وكنت اتصل به وهو في القاهرة لأسأله أو أحاول الانتصار لرصدي أحياناً حتى تأتي التوضيحات الدامغة منه، ومن ذلك نلت معلومات إضافية كنت بها حفية.

وإن كنت اجتهدت للحصول على رواية لأهم الأحداث بحسب معرفتي وإمامي، إلا أنه لم يتح لي الاستفادة من مصادر هامة مثل دار الوثائق القومية خاصة أرشيف الصحف فيها، وبالرغم من رجوعي لبعض الكتب والدراسات والبحوث التي نشرها آخرون إلا أن مصدري الأساسي كان كتابات الإمام الصادق المهدي نفسه، وحتى هذه

ما أمكن استصحابها جميعاً كما ذكرت.

وقد أقحمت أحياناً ذكرياتي وانطباعاتي لا لأهميتها بحال، ولكن لإضافة مسحة حميمية على الكتاب الذي صيغت أغلب فصوله بتجريدية بالغة، وذلك كعربون إلفة للقارئ. كما أضفت روايات في إطار ينكره البعض، فإن لم يقنع أولئك بأن في الكون روحانيات، فلينسبوا للتخاطر أو الاستبصار Telepathy أو أي من ضروب الباراسايكولوجي التي صارت تدرّس لدى أعتى الماديين.

وقبل الختام، أعد بمواصلة هذا الجهد حتى تمام الأجزاء المزمعة بإذن الله، وأقر بأني وقد فتحت ثغرة على نبع المعرفة وأنا أقلب أوراق الإمام الصادق المهدي وجدت السيل يغمرنى ويشرقني، وكثير من الأوراق التي طالعتها مست شغاف قلبي، وفي النهاية جددت دهشتي بهذا الحبيب! ولكن، لا ينبغي النظر لهذه الدهشة باعتبارها حجاباً يعمي عن النظر الموضوعي، فأحياناً برغمها خالفت رؤى الإمام الصادق، وربما مردّد ذلك الخلاف أي تتلمذت على رؤاه وتشبعت بروحه التي تشع من كتاباته المنادية بتغيير الواقع وتثويره منذ صغري، ولم أمارس السياسة عملياً بذات القدر، لذلك صرت أقل قدرة على تفهم الموازنات التي كثيراً ما جعلته يصلح الواقع، مثلما يشير كثيراً لفقهِ التنزيل في مفهوم ابن قيم الجوزية قائلاً إن الفقيه هو الذي يدرك الواجب ويفهم الواقع ويزاوج بينهما.

وإضافة لاختلاف التقديرات، ليست هناك مسيرة بشرية تخلو من خطأ، وبكلمات السيد الصادق ذاته في أكتوبر ١٩٦٦ مؤكداً أن الأداء الإنساني لا مجال فيه للكمال: (كل أداء أنساني مهما كان ذلك الأداء حتى وإن كان في أدق أوضاع الهندسة لا بد له من تقصير في شيء ما، فالأداء الإنساني مربوط بالنقص ارتباط الإنسان بطبيعته وتكوينه) ولهذا سنجد أنه أحياناً أقر بارتكاب أخطاء ندم عليها.

الشاهد، لقد بدا هذا الحبيب غريباً في ستينات القرن الماضي وهو يطلق صيحة تحديث مؤصل في واقع منقسم بين الذين سدرُوا خلف صاحب الناي الحداثوي مشغولين ببعض قشوره غير أبين بجوهر الحداثة، وبين الذين قنعوا بواقع التخلف وارتضوا مواريث المجتمع وقيمه كما هي، فجلب معه ذلك الذهن المرتب إلى رئاسة الوزارة، وقد أطلق نداء التطوير والتحديث في كل ملفات العمل من ضرورة التقيد

بالميزانية، وإصلاح الخدمة المدنية، وعمل الجمعية، والعمل الحزبي، وغيرها من الملفات. وظل صوتاً ينادي بالتطوير والمأسسة من داخل كيان وصم بالتقليدية، متناقضاً مع ما يسود مجتمعنا من تحلل، غريباً على ما حوله من نماذج منها من سعى لتثبيت واقع التخلف والإفادة من ميزات القيادة بالإرث حشداً لجماهير مذعنة خلف مصالحه، ومنها من استغل الأشكال الحداثوية مطية لنظم النخبة في سلك أغراضه.. نعم كان غريباً، وهبت في وجهه أعاصير الرفض من الحرس القديم، ثم ركب أهل الشعارات التقدمية الدبابات فما وجدوا لسهامهم من صيد أعز منه. وظل يعافر ويقاتل ويصالح ويواجه حتى كانت الانتفاضة المباركة وله فيها سهم مع غيره من قوى الانتفاضة الباسلة، ليأتي حاكماً من جديد، وتبدو مواقفه ورؤاه محط أمل جموع كبيرة، ومحط نقد ومناورات لمعارضين كثر في اليمين واليسار والوسط، فيبدو من جديد وكأنه قريب من الأمل غريب ممن حوله حتى داخل حزبه أحياناً، تتلاحم من حوله وتعلو أمواج وتقرب الحيتان وهو يقود السفين في بسالة وفي استماتة.

ويبدو مشوار الحبيب الطويل ذاك وكأنه رحلة أحد أبطال الأحاجي كحسن الشاطر، أو فاطمة السمحة، وما فيها من غيلان وسعالي، أو كالأوديسة وأهوالها العجيبة، وتراه يواجهها بذاك الوجه الباسم أبداً، ويعلق على صفحة المرأة التي يلف أمامها عمامته برشامة للصبر: (إذا زاد فضل المرء زادت خطوبه ويحمد منه الصبر فيما يصيبه/ فمن قل فيما يلتقيه اضطباره لقد قل فيما يرتجيه نصيبه).. كتب عنه ذلك الصحفي العربي أنه (المعذب في الأرض) ومع أنه لم يستطع إدراك كنه ذلك العذاب كما نراه لكنه لمح الظاهرة، ثم أنشد له المغني في ليلة العرفان: لو ينحني الجبل الأصم.. لا تنحني!!

إنها مسيرة يصعب تلخيصها، تشد العصب وتشرع الروح في أساطيل الشجى، ولكنها صفحات أحضرت فيها من قراطيس السيد الصادق المهدي ما رأيته يروي الرواية، وأضفت من عندي. وهو رصد قطعاً مثلما ينبع من محبة الحبيب الإمام الصادق المهدي، ينبع من محبة الحقيقة ومن محبة الحبيب الأعظم الذي أوصانا بتحري الصدق (صلى الله عليه وسلم)، ومن محبة هذا الشعب العظيم الذي إنما أوقف حيينا عليه حياته، اللهم احفظه لنا وبارك في أيامه، واذهب اللهم قيد بلادنا وأحطها بالعبادة التي تذهب عنها النكاية، آمين.

وفي نهاية مقدمتي هذه أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في مدني بالوثائق التي احتجتها وقد قطعت البحر الأحمر نحو ديار الحرمين الشريفين فلم يمكن اصطحاب كل المكتبة التي تعوزني. وأخص بالامتنان الكاتب الصحفي الكبير الأستاذ مصطفى عبد العزيز البطل الذي بعد إفادتي القصوى من واحد وعشرينته حول فترة الديمقراطية الثالثة رأيت أن أعرض عليه الجزء الثالث ليراجعه ففعل ذلك مشكوراً في سرعة تؤكد أنه قارض مهول للكتب، وأغراني جوده بسؤاله المزيد فلم ييخل بملاحظاته وتصحيحاته التي أفادني كثيراً في الأجزاء الثلاثة، جزاه الله عني كل خير.

كما أشكر الحبيبة رشيدة إبراهيم عبد الكريم، والحبيب صديق الصادق علي ما جودا من عملي بنظراتهما وملاحظتهما.

ولا يفوتني شكر زوجي الحبيب عبد الرحمن الغالي الذي صبر على انكبابي المتصل وما جره من انشغال ورهق ومن ثم علل فكانت شفقتة تؤاخي تشجيعه، وكم كنت أغرف من علمه وخبراته شفاهياً وقد ظللت أفعلمها طيلة تلك السنين! ومحبتي وامتناني للصفار الثلاثة: محمد الرشيد، ورحمة، والطاهر، وأختهم الكبرى أمان التي كانت تتابع من بعد، فقد عانوا معي مخاض هذا السفر، إني أدعو الله أن يكون في جهدي ما يشحذهم وجيلهم نحو عطاء متصل للوطن، أسوة بصاحب السيرة والمسيرة. فلو تم تدويل مثل كدحه وجده واجتهاده في بلادنا لبلغنا الحداء (شان هنانا، شان منانا.. شان عيون أطفالنا ما تضوق الهزيمة).. آمين.. آمين.. آمين.

رباح الصادق المهدي

أبها في نوفمبر ٢٠١٥م